يضعنا التاريخ مباشرة وجهاً لوجه أمام ابن طفيل صاحب رسالة « حي ابن يقظان » وهو في طور النضج والاكتمال العلمي دون أن يحدثنا عن نشأته ، أو يصور لنا شيئاً من بدايته .

ويصمت التاريخ كذلك ، أو يقلل ابن طفيل في صمته ، فلا يكاد يذكر عنه شيئاً حتى بعد أن بلغ القمة ووصل الى مرتبة الوزارة . وكل ما أثر عنه لا يكاد يتعدى بضع صفحات تضمن معظمها كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » للمراكشي . وكتاب « مركز الإحاطة بأدباء غرناطة » للسان الدين بن الخطيب . وهذا الذي ذكر على قلته به أخطاء تاريخية وفلسفية أرشدنا إلى معرفتها رسالة حي بن يقظان نفسها .

ولقد أجهد الأستاذ ليون جوتييه نفسه مشكوراً في تقصي الأخبار عن ابن طفيل وجمعها ، ومع ذلك فلم يكد يتيسر له إلا ما جاء في الكتابين السابقين . ومع قلة هذه المصادر فقد أخذ الأستاذ جوتييه في دراستها ووصل منها إلى نتائج ذات قيمة لخصت أو اقتبس منها الكثير في المقدمة النفيسة التي كتبها الأستاذان الجليلان جميل صليبا وكامل عياد لرسالة حي بن يقظان .

وإذا كان التاريخ القديم قد مر في سرعة خاطفة بحياة ابن طفيل فلم يسجل منها إلا القليل ، فإن المصادر الحديثة كذلك تكاد تقتصر على ما كتبه الأستاذ ليون جوتييه .

والحق أن هذا الأستاذ قد قدم إلى العلم ، وإلى ابن طفيل خدمة عظيمة ، فإنه قد ألف كتابا في حياته وفلسفته ، وفضلا عن ذلك فقد قام بترجمة رسالة حي بن يقظان إلى الفرنسية بعد أن حققها تحقيقاً علمياً من ناحية النص واختلاف الطبعات والمخطوطات ، ومع أن الأستاذ جوتييه قد صحح بعض الأخطاء التي وقع فيها الكثير من المستشرقين في دراساتهم

العابرة لابن طفيل ، ومع ما بذله من جهود يشكر عليه ، فإن ابن طفيل لا يزال فى حاجة إلى دراسة عميقة تبين أغراضه الحقيقية وأفكاره التى نثرها خلال قصته فمر عليها الكثيرون مروراً عابراً دون أن يمنحوها ما ينبغى لها من أهمية ودرس .

إن الجهود لم تتضافر بعد على دراسة ابن طفيل كما تضافرت على دراسة غيره كابن رشد أو ابن سينا ، لذلك لا يزال هذا الفيلسوف فى حاجة إلى درس أوسع وإلى بحث أشمل ، وأرجو أن تسد المساهمة العلمية التى أقوم بها الآن بعض النقص فى هذه الحلقة .

على أنى أريد أن أحدد عملى تحديداً صريحاً ؛ إنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) الكتابة عن حياة ابن طفيل .

(٢) إخراج رسالة حى بن يقظان .

(٣) شرح فلسفته على وضعها الصحيح : شرحها فى ذاتها ، وتحديد الصلة الفكرية بين ابن سينا والغزالى وابن باجة من جانب وابن طفيل من جانب آخر .

أما عن حياة ابن طفيل : فالكاتبون يلتقون عند مصادر واحدة ويستقون من نبع واحد . بيد أن لكل كاتب طريقته فى العرض والاستنتاج . وهذا القسم على كل حال ضئيل .

وأما عن إخراج الرسالة فطبعاتها متعددة ، ومخطوطاتها معروفة ، ولكل إنسان اجتهاده فى تصحيح النص .

أما العمل الحاسم وهو فهم فلسفة ابن طفيل فهماً صحيحاً ، وتحديد مصادرها ، وبيان ما بين ابن طفيل وابن سينا والغزالى من صلة فكرية ، فإنى لا أكاد ألتقى فيه من قرب أو من بعد بمن كتبوا عن ابن طفيل ، سواء القدماء منهم والمحدثون . والله ولى التوفيق ؟